فكاهات

العلَم (١)

كان في مدينة بلاك پول من انكلترا فتىً احترف الخياطة ولم يكن في المدينة سواه فراجت صناعتهُ وكبر شغله وجمع من حرفتهِ مبلغاً ليس بقليل • فاشتهر امره في تلك الجهة وود كثيرون من ابنآء الأسر الكريمة ان يصاهروه لما توسموا فيه من زيادة النجاح وما رأوه فيه من الاستقامة وحسن الصفات والصدق في المعاملة• اما الفتى واسمهُ جورج فكان مع ميله الى الزواج ورغبتهِ ان يصير صاحب بيت يأوي اليهِ لا يود ان يتعلق بهذه الرابطة الجديدة قبل ان يتمم اساس عمله ويضمن لنفسهِ مستقبلاً حسناً • وكان مع ذلك لا يفتر عن مراقبة الفتيات اللواتي يقابلهنَّ بعين نقادة فيختبر احوالهنَّ وطباعهنَّ بدون ان يبدو عليه ما يدل على ذلك حتى اتفق ان تعرَّف بفتاة نالت في عينيهِ حظوة كبيرة فاعجبتهُ آدابها وميلها الى العمل والترتيب فقصد والديها خاطباً فلم يرد طلبهُ

وخصص جورج مبلغاً من ماله بنى بهِ داراً فسيحة على شاطىء البحر فكان البنآء مع بساطته في غاية الاتقان ثم اودعهُ ما شآء من الرياش والاثاث البسيط الثمين • ولما اتم جميع هذه المعدات عقد له على خطيبته في بيت والدها واقام والدها لذلك القران حفلة شائقة حضرها العدد الغفير ودامت مسراتها حتى الصباح • ولما انتهت حفلة العرس اخذ جورج بيد زوجتهِ وخرج بها ذاهباً الى بيتهِ الجديد فسكن الزوجان تلك الدار وهما كملكين في احدى حدائق النعيم • وكان جورج لا يصدق ان ينتهي من عمله في المسآء حتى يعود الى بيتهِ فيجد تلك الزوجة الامينة قد اتمت ترتيب بيتها واعدت الطعام والشراب وجلست في الحديقة تنتظر عودة

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

زوجها فلا تكاد تراه قادماً حتى تنهض لملاقاتهِ فتضمهُ الى صدرها و يضمها الى قلبهِ

وفي نهاية السنة الاولى من زواجهما رزقهما الله ولداً ذكراً فدعي باسم ابيهِ واصبح الطفل سلوة والديهِ يقضيان معظم الوقت في مناغاتهِ وملاطفتهِ ولا سيما حين درج وابتدأ في الزحف على ارض الغرفة. وزاد ولعهما به حين ابتدأ يتكلم فجعلا يعلمانهِ الاسمآء والعبارات و يضحكان من لفظهِ وحركاتهِ . ولم يرزقهما الله غير هذا الولد فانصرفت محبتهما اليه ولم يعودا يهتمان من العالم بشيءٍ سواه

وكانت اشغال جورج تزداد تقدماً ونجاحاً فنسب ذلك الى بخت ابنهِ وزاد تعلقهُ بهِ فلم يكن يطيق ان يبتعد عنهُ وهو يود ان يقدم له جميع ما تصل اليه يداه او ما يرى الطفل يود ان يحصل عليه . ولم يمكنه الابتعاد عن ابنه ليرسله الى المدرسة فاستدعى له مربيةً تعلمهُ في البيت . وكان الولد قد ربي على شاطئ البحر فنشأ له ولع عظيم بركوب البحار ومراقبة الامواج والمد والجزر ورأى فيه والده هذا الميل فاصطنع له قارباً صغيراً وكان اذا انتهى من عمل نهاره يركب القارب مع ابنهِ في اكثر الايام و يسيره على مقربة من الشاطئ فكان جورج الصغير يجد لذة عظيمة وخصوصاً عند ما صار والده يسمح له بالقبض على المجذاف وتسيير القارب حسب رغبته . ولما بلغ جورج الثامنة من عمره صار يخرج الى القارب وحده فيركبه و يديره بنفسه فقط

وحدث ذات يوم ان مربية جورج مرضت فلم يكن عليه شيء من الواجبات وملّ البقآء في البيت فخرج الى قاربه فركبه وابتعد به عن الشاطئ وما زال يجذف حتى بلغ البحر الكبير . وادركه الكلال فلم يعد يقوى على التجذيف ثم اشتدت الريح فدفعت قاربه الى عرض البحر وكان التيار يسوقه و يزيد في ابعاده عن الشاطئ حتى لم يعد يرى حوله سوى المياه . و بينما هو كذلك اذ حانت منهُ التفاتة فرأى بالقرب منهُ ثلاثة مراكب حربية كبيرة عليها الراية الانكليزية ولم يكن قد رأى في عمره بعد مركباً كبيراً فادهشهُ هذا المنظر وانتصب في قاربهِ واقفاً يتفرس في هذه المراكب العجيبة . ورآه بحارة المركب المتقدم فاستغربوا وجود

مثل هذا الولد في ذلك الموضع وتيقنوا انه هالك اذا تركوه فدنوا من قاربه وكلموه فاجابهم بجرأة و بطلاقة لسان وطلب منهم ان يصعدوه اليهم • و بعد اخذ رأي الربان في ذلك رموا لجورج حبلاً ما كاد يصل الى يده حتى تسلق بواسطته على جانب المركب كامهر بحار و بلغ ظهر المركب وكان عند صعوده ان سقطت قبعته عن رأسه فوقعت في القارب • وسر الربان جداً من شجاعة الولد فجعل يسأله عن اسمه واهله و بلده وكيف وصل الى ذلك المكان فقال الولد انني ادعى جورج ولكنهُ انكر وجود اهل له ولم يذكر اسم بلده مخافة ان يردوه اليه • ثم قال للربان انني منذ صغري احب ركوب البحار وقد صرت معتاداً لها وبما انه لا اهل لي فاود ان تبقوني عندكم وأعدكم انني اقوم بما يطلب مني من الواجبات فاني وان اكن صغيراً فيداي قويتان معتادتان التجذيف والتسلق على الصاري • ولما قال هذا وثب بسرعة الى صاري المركب ليبرهن على صدق كلامه وتسلق نحو ثلاثة امتار منه في اسرع من لمح البصر فتبسم الربان وقال لا ارى ما يمنع قبول هذا الولد معنا وتربيتهُ ويحدثني قلبي ان سيكون له في المستقبل شأن يذكر غير انه من واجباتنا ان نبحث عن اهله لعل له اهلاً يدرون بمحل وجوده • ثم نشر الربان اعلاناً في بعض الجرائد ذكر فيه وجود الولد عنده غير ان والدي جورج لم تصلهما الجريدة التي فيها ذلك الاعلان فلم يعلما شيئاً عنه • ولما مضت مدة من الزمن ولم يسمع الربان شيئاً عن اهل الولد وكان ذلك ما يتمناه حقيقةً تيقن ان الولد سيبقى له فوجد سروراً عظيماً في حفظهِ والاعتناء بهِ

وكان بعد ما رقي جورج الى المركب ان دارت الريح فدفعت قاربهُ الى جهة البر وما زالت الامواج تلاطمه حتى ارجعته في اليوم الثالث الى الشاطئ الذي ركب منه جورج • اما والدا جورج فلما غاب في اليوم الاول قلقا قلقاً شديداً وبحثا عنه كثيراً فلم يقفا له على اثر وزاد بلبالهما لما لم يجدا القارب ايضاً وخافا ان يكون قد ابتعد به الى حيث لم يعد يستطيع الرجوع فاكترى الوالد المسكين بحارة يبحثون عنهُ على طول الشاطئ فطافوا ورجعوا في اليوم الثاني بدون جدوى • وعلم

الوالدان ان ابنهما لا بد ان يكون في جهة ما من البحر وساعدهما الامل على الانتظار فانتظرا وهما لا يذوقان قوتاً ولا يغمض لهما جفن الى اليوم الثالث حين رأيا القارب مقلوباً على صخر بقرب الشاطئ والقبعة بجانبهِ فتيقنا ان ولدهما قد اصبح طعاماً للسمك وانقطع ما بقي عندهما من الرجآء في ملاقاتهِ فحبسا نفسيهما في البيت عرضةً للاحزان والاشجان وجعلا طعامهما التنهدات وشرابهما العبرات. ولم يمض على ذلك الا القليل حتى اثر الحزن في نفس الوالد فاصابهُ مرض الزمهُ الفراش اياماً وكانت حالتهُ تزداد تأخراً فلم تنجع فيهِ حيل الاطبآء وقضى بعد ايام وهو يردد قبل موتهِ اسم ابنهِ الحبيب . وفاضت روحهُ على صدر زوجتهِ الامينة التي كانت تخفي ما ألم بها من الحزن تحت ستار التصبر وهي تجهد النفس في تعزية زوجها شفقةً عليهِ . ثم بقيت بعده تندب فقيدها فانقطعت عن العالم باسره وانزوت في غرفة من ذلك الكبير بعد ان صبغتهُ بالسواد وآلت على نفسها ان لا تتمتع بعد ذلك بسرور

اما جورج فكان ما رآه في المركب من العدد والمدافع وسائر الآلات وحركات الاعمال قد انساه والديهِ ووطنهُ فلم يعد يهمهُ سوى العمل في المركب وتنظيف الاسلحة وتسلق الصواري وما شاكل ذلك . وكانت المراكب الثلاثة التي التحق بها تؤلف اسطولاً صغيراً تحت قيادة الربان الموجود جورج في مركبهِ وغرضها المحافظة على سواحل بريطانيا ومصادمة المراكب الفرنسوية التي كانت تترصد الانكليز لوجود العداوة اذ ذاك بين تينك الدولتين كما هو معروف في التاريخ وقد حصلت بينهما عدة مواقع بحرية لا سبيل الى تعدادها هنا

فلبثت المراكب المذكورة تمخر عباب البحر ذهاباً واياباً وتتقدم كلما سنحت لها الفرصة الى السواحل الفرنسوية للاكتشاف والاستطلاع . وحدث انها بينما كانت سائرة يوماً عند حدود بحر بيسكي اذ استقبلها خمسة من المراكب الفرنسوية الحربية . ورأى الربان ان لا بد من نشوب معركة بين الفريقين فامر رجالهُ بالاستعداد اللازم وفعل مثله ربان المراكب الفرنسوية . اما جورج فلم يكن

يعرف شيئاً من ذلك غير انهُ سرَّ كثيراً لمشاهدة تلك المراكب فكان يطفر فرحاً وسروراً وكأنهُ قد نال معظم ما تمناه • ولكنهُ ما لبث ان دوى في اذنيهِ صوت البارود وشاهد اطلاق المدافع والمقذوفات النارية فارتعب وارتعد وعلى الخصوص عند ما شاهد لاول مرة سقوط القتلى والجرحى الى جانبيهِ • غير انهُ كان على ما يظهر قد تألف في دمهِ حب القتال وعدم الخوف من الحرب فبهت قليلاً ثم انتفض كأنهُ يزيل عنهُ ما علق بهِ من تلك المخاوف وجعل يشب بين الجنود يحشو لهم اسلحتهم و يساعدهم بقدر ما تمكنهُ سنهُ من ذلك

وكانت المراكب تزيد في الاقتراب بعضها من بعض حتى حاذت المراكب الانكليزية المراكب الفرنسوية وألقى مركب الربان الانكليزي سلاسله الحديدية على مركب الربان الفرنسوي فاصبح الاثنان واحداً وهي طريقة مألوفة في المعارك البحرية القديمة فأُهمل اطلاق المدافع والاسلحة النارية واشتبك جنود الفريقين في معركة اعملت فيها بيض الصفاح ونابت طعنات الايدي وقوة السواعد عن رصاص البنادق ونار البارود

ولم يجبن جورج عند مشاهدتهِ ما حصل ولكنهُ لم يعرف السبب الداعي الى هذا القتال ولم يتمكن من معرفة ذلك بالسؤال من احد لوجود جميع الجنود مشتغلين عنهُ بواجباتهم • ولكنهُ ما لبث ان رأى جندياً مجروحاً مطروحاً الى جانب المركب يستغيث به ليحضر لهُ جرعة من المآء • فاسرع جورج واحضر لهُ كأساً من المآء ولما سقاه ورآه قد انتعش قليلاً سألهُ عن سبب هذه المعركة وهل تطول ومتى تنتهي • فقال لهُ الجندي ان سبب هذه المعركة هو العداوة القائمة بيننا و بين الفرنسويين من زمن طويل • ثم اشار الى العلم الفرنسوي المنصوب على صاري المركب الفرنسوي وقال لجورج أتنظر هذا العلم المثلث الالوان • فقال جورج نعم انظره • فقال الجندي اذا تمكنا من تنزيله بطل القتال في الحال وحقنا الدمآء وربحنا هذه المراكب بكل ما فيها • فقال جورج يا للعجب وهل تقتل الناس ويحصل ما اراه الآن من اجل هذه الخرقة • ولما قال هذا سار وهو يهز رأسهُ متعجباً ممنا

سمع وكأنهُ يسخر باولئك المتحاربين ولم يقف في سيره حتى بلغ جانب المركب الفرنسوي فوثب اليه ولم ينتبه احد الى جورج لصغر سنهِ ولاعتقادهم ان غلاماً كهذا لا يكترث بهِ • اما هو فتوجه تواً الى الصاري فتمسك بهِ وجعل يتسلقهُ بغاية المهارة والسرعة حتى بلغ اعلاه حيث العلم المنصوب فأخذه من مكانهِ وانزله ثم لفهُ حول ذراعهِ ونزل كما صعد بمنتهى الخفة والرشاقة واسرع بهِ الى الربان الانكليزي • وكان هذا واقفاً يعطي الاوامر لرجالهِ ويراقب حركات القتال فوقف جورج امامهُ ثم نزع العلم الفرنسوي الملفوف حول ذراعهِ فطرحهُ الى الارض امام الربان وقال بلغني انكم تتقاتلون لاجل الحصول على هذه الخرقة فها كها من يدي • ولم يصدق الربان ما رآه بعينهِ وسمعهُ باذنهِ حتى رفع نظره الى صاري المركب الفرنسوي فرآه بدون علم فتحقق ما فعلهُ جورج وفتح فاه يريد الكلام ولكن الحيرة والاعجاب اخذا منهُ مأخذاً عظيماً فوقف وهو لا يدري ماذا يجب ان يقول • ورأت رجال المراكب الانكليزية ان العلم الفرنسوي قد انزل فايقنوا انهم ربحوا المعركة وارتفع منهم هتاف الاستبشار والفرح حتى بلغ عنان السمآء • اما المراكب الفرنسوية فلما رأت علم مركب القائد قد أُنزل تيقنت انهُ لم يقوَ على مقاومة الانكليز وانهُ سلم لهم فابطلوا القتال وسلموا المراكب الانكليزية فاصبح الاسطول الفرنسوي في حوزتها وأُخذت رجاله اسرى وكان الفوز المبني على تلك المعركة للحركة التي اجراها جورج والتي لم يكن من المحتمل ان يقوم باتمامها احد سواه

وبلغ خبر هذا الانتصار دوائر الحكومة الانكليزية فكافأت امير مراكبها مكافأة جزيلة عاد منها بعض النفع الى جورج فاهدى لهُ الربان مبلغاً من النقود وعينهُ في وظيفة رسمية في مركبهِ فلم يكن لجورج اسعد من تلك الدقيقة التي ارتدى فيها بالثوب الذي طالما اشتهى ان يرتديهُ • ولم تقف مطامع جورج عند هذا الحد فانهُ كان يتوق الى زيادة التقدم وكان يقوم باعبآء وظيفتهِ بهمة لا تعرف الكلال ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى اصبح ضابطاً بحرياً معروفاً لدى الحكومة ونال رضى وسرور رؤسآئهِ • ولما اتضحت مزيتهُ للحكومة سهلت له سبيل التقدم

فاصبح بعد حين من الزمن ربانًا لمركب حربي تقلد رئاستهُ وصار في عهدتهِ فكان جورج هو المسؤل عنهُ

وبعد مضي عدة سنوات مرَّ مركب جورج امام مدينة بلاك پول فتذكر جورج طفوليتهُ وتمثلت امام عينيهِ صورة والديهِ ومربيتهِ والشاطئ الذي كان يقضي اوقاتهُ بقربهِ • ثم تذكر ايضاً قاربهُ الصغير وتلك السياحة التي سار فيها بدون ان يعلم احد فتحركت في قلبهِ عاطفة لم يشعر بها قبلاً ونازعهُ الشوق الى مشاهدة والديهِ فجعلت الدموع تتساقط من مآقيهِ عند تصوره الغم الذي لا بد ان يكون قد استحوذ عليهما عند ما بحثا عنهُ ولم يجداه وهما لا يعلمان مقره فجعل يلوم نفسهُ على عمله الفظيع وصمم للحال ان يزور تلك المدينة بدون تأخير فيسأل عن سلامة والديهِ ويعرفهما بحالتهِ ويستغفرهما عما سبب لهما من القلق والحزن بجهله وطيشهِ • فامر ان يقترب المركب من الشاطئ ما امكن ثم أُنزل لهُ قارب ركبهُ مع بعض الضباط وكانت البحارة تجذف بهم الى الجهة التي يرشدهم اليها جورج حتى بلغوا الشاطئ امام بيتهِ • فصعد مع رجالهِ الى البر من نفس المكان الذي كان ينزل منهُ صبياً • فوقف هنيهة ريثما مسح الدموع المترقرقة من مآقيهِ ثم تقدم الى جهة البيت فرآه كما كان يعهده سوى انهُ مصبوغ بلون اسود فخفق قلبهُ وارتعشت ركبتاه واوشك ان يسقط الى الارض • ولما بلغ الباب طرقهُ ففتح وظهرت منهُ امرأة متقدمة في السن قد رسمت المصائب على وجهها علامات الكبر قبل وقتها وقد انحنى ظهرها وهي تجر خطواتها متثاقلة • فلما وقع نظر جورج عليها عرفها للحال انها امهُ وهمَّ ان يهجم عليها ويقع على قدميها معترفاً بذنبهِ ويطلب منها الصفح ولكنهُ خشي ان تؤثر فيها الحالة الفجائية فتمالك ثم قال لها يا سيدتي اننا سئمنا عيشة البحر فاحببنا ان نصرف بضع ساعات على البر وساقنا القدر الى دخول هذا البيت فهل تقبلين ان نجلس عندكِ هنيهة • قالت مرحباً بكم وهل استطيع ان اقدم لكم شيئاً • قال نعم خذي هذه (ودفع اليها قبضة من النقود) وارسلي من يبتاع لنا طعاماً لاننا نحب ان نتناول الغداء هنا • فدفعت يده وقالت أبقِ مالك في جيبك يا مولاي فانهُ لم يزل عندي

من فضل الله ما يمكنني من القيام بضيافتكم فادخلوا ان شئتم هذه الغرفة واستريحوا فيها ريثما اجهز لكم الطعام . ولما قالت هذا ادخلتهم الى ردهة فسيحة جلسوا فيها فتركتهم هناك وذهبت لشأنها . اما جورج فكان يرى الغرفة وما فيها كما كانت في نفس اليوم الذي تركها فيهِ فجعل يتنقل من غرفة الى اخرى وكلما تذكر شيئاً انسدل امام عينيهِ حجاب من الدموع الى ان وصل الى غرفتهِ الخصوصية وما فتح بابها حتى شعر بارتعاش عظيم في جسمهِ فاصطكت ركبتاه ولم يعد يقوى على حمل نفسهِ فسقط على كرسي كان بجانبهِ واطلق لنفسهِ العنان فبكى بكآء مراً حتى ارتوى . فمسح دموعهُ وتأمل في الغرفة فوجدها كما تركها تماماً وقد زاد فيها القارب الذي كان يركبهُ فان والدتهُ كانت قد احضرتهُ ليكون آخر تذكار من ولدها ووضعتهُ في غرفتهِ التي كانت تقضي معظم وقتها فيها . ولما اتم زيارة البيت عاد الى رفاقهِ وقوّى نفسهُ فجلس ولكنهُ تعجب من عدم مشاهدة والده وظنهُ لا يزال في شغلهِ وانهُ لا بد ان يعود في المسآء . وبينما جورج جالس رأى البيانو الذي كانت تضرب عليهِ امهُ وكان قد تعلم الضرب على ظهر المركب فكان يراجع اغنية ألفتها والدتهُ وكانت تغنيها لهُ حين يذهب لينام . فنهض الى البيانو وجلس اليهِ وجعل يوقع تلك النغمة ويتغنى بها بصوت مؤثر ولكنهُ لم يصل الى منتصفها حتى رأى باب الغرفة قد فتح ودخلت منهُ والدتهُ وقد اصفرَّ وجهها وظهرت عليها علامات تدل على اختلال الشعور وقالت لهُ من علمك هذه الاغنية يا مولاي . فتوقف جورج ثم قال علمتني اياها والدتي حين كنت صغيراً . قالت واين هي والدتك واين تعلمتها . قال في بلاك پول حيث وُلدت وحيث هي والدتي الآن . قالت والدتك الآن في بلاك پول .. ومن هي . قال هي انت يا اماه وانا هو ابنك العقوق المذنب . ولما قال ذلك وثب بسرعة لمعانقة والدتهِ فلم يصل اليها الا وهي قد فقدت الشعور وهوت الى الارض

وكانت تلك الدقائق من اشد ما يؤثر في النفوس واسرع رفاق جورج فانهضوا الوالدة وابنها واخذوا في معالجتها حتى عادت الى الحياة وجلست بجانب ولدها وهي ترى كأنها في حلم واخذ جورج يتلو عليها ما حصل لهُ ويستغفرها عما سببهُ

لها ولوالده من الحزن والجزع • ثم قال وقد جئت الآن لاجثو امام قدميك اطلب منك العفو وفي يقيني انك لا تضنين بهِ على وحيدك هذا واني انتظر عودة والدي لافعل معهُ ما فعلت معك • واذ ذاك شهقت الوالدة المسكينة وقالت آه يا جورج ان والدك لن يعود الينا فان حزنهُ على فقدك اورثهُ مرضاً ذهب بحياتهِ بعد فقدك بشهر • وكان هذا الخبر ضربة اخرى على جورج زادت حزنهُ وانتحابهُ فوضع عنقهُ على عنق والدتهِ وجعل الاثنان يبكيان بدموع سخية ويقول جورج اواه فقد قتلت ابي •• ولولا وجود رفاق جورج معهما لمات الاثنان من شدة الحزن غير انهم اجتهدوا في التخفيف عنهما •••

ثم تناول الجميع الطعام الذي اعدتهُ تلك الوالدة وقد عاد اليها شيء من قوة الشباب بعد مشاهدة ولدها وآلت ان لا تفارقهُ بعد ذلك غير انهُ اعلمها بالوظيفة المسلمة اليهِ ووعدها ان يزورها مرتين في كل سنة ويصرف معها اياماً • ثم عاد رفاق جورج الى المركب وبات هو ليلتهُ مع والدتهِ وفي الصباح التالي القى بين يديها كيساً من النقود واستأذن في السفر لانهُ لا يمكنهُ ان يتأخر زيادة عن ذلك خوف التبعة • فرافقتهُ تلك المسكينة الى الشاطئ ولما دنت ساعة الوداع لم تتمالك نفسها عن التعلق بعنق ولدها وهي لا تريد ان تتركه • ورأى جورج ان لا يحرم والدتهُ عزاءها الوحيد في ايامها الاخيرة فوعدها ان يستأذن الحكومة في العودة اليها عن قريب فيمكث معها شهراً او اكثر فسرَّت بهذا الوعد وزودتهُ ببركتها ودعائها وبقيت تنظر الى مركبهِ حتى غاب عن بصرها

وصدق جورج في وعده فاستأذن في صرف شهر عند والدتهِ قضاه معها على غاية الدعة والسرور ولم يكن ما يحزنهما سوى ذكرى والدهِ الذي قضى شهيد الحنو والاسف • وما زال جورج في وظيفتهِ يزور والدتهُ كلما سمحت لهُ الفرص الى آخر ايامها